﴿ نموذج من كتاب اسرار البلاغة ﴾

قلنا ان هـذا الكتاب يعطى صاحبه البلاغة علماً وعملا وانما نذكر مثالاً لتأييد قولنا جزءاً من الفصل الذى وضعه الامام عبد القاهر فى مواقع التمثيل وتأثيره فى النفوس لان التمثيل اعظم اركان البلاغة ولا نكاد نجد فى كتب البيان التى تتداولها شيئاً مما كتب هذا الامام كأن مواقع التمثيل ومواضعه والبحث فى تأثيره فى النفوس وهزه للوجدان ليس من هذا العلم وما هو الا روح العلم الذى لولاه لم يكن للناس من حاجة به . وقد توسعنا فى امثلة ضروب التمثيل فى الهامش زيادة على ما ذكره المصنف لان الامثلة هى امثل طرق التعليم ولا نكاد نجد فى الكتب التى تتدارسها الا مثل « ما لى اراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى » فلنعرض عما امات العلم من الكتب ولنرجع الى كتب الأئمة الذين قرنوا العلم بالعمل وإمامهم فى فنون البلاغة الشيخ عبد القاهر قال رحمه الله تعالى

فصل

«فى مواقع التمثيل وتأثيره»

واعلم ان مما اتفق العقلاء عليه ان التمثيل اذا جاء فى اعقاب المعانى او برزت هى باختصار فى معرضه[1] ، ونقلت عن صورها الاصلية الى

(١) يقول ان للتمثيل مظهرين . ويتجلى للانظار فى نوعين . أحدهما أن يجيء

صورته كساها ابهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من اقدارها ، وشبّ من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب اليها ، واستثار لها من اقاصى الافئدة سبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على ان تعطيها محبة وشغفاً ،

فان كان مدحاً كان ابهى وافخم ، وانبل فى النفوس واعظم ، واهزّ للعطف ، واسرع للالف ، واجلب للفرح ، واغلب على المتدح ، واوجب شفاعة للمادح ، واقضى له بغُرّ المواهب والمنائح ، واسير على الالسن واذكر ، واولى بان تعلقه القلوب واجدر ، (١)

المعنى ابتدآء فى صورة التمثيل وهو النادر القليل . ولكنه على قلته فى كلام البلغاء كثير فى القرآن العزيز فمنه قوله تعالى « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً » الآية . وقوله بعدها « أو كصيب من السمآء » الآية . وقوله عز وجل « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعآء ونداآء » وقوله تبارك وتعالى « مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا » الآية وقوله تبارك اسمه « انزل من السمآء مآء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغآء حلية او متاع زبد مثله » الآية . وغير ذلك . (وثانيهما) ما يتأثر المعانى ويجيء فى اعقابها لايضاحها وتقريرها فى النفوس وايداعها التأثير المخصوص وهو الذى جعله المصنف اولاً ومثاله من القرآن قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركآء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون » فقد اورده بعد ما قرر امر التوحيد من اول السورة وشنع على الذين اتخذوا من دونه اولياء يقربونهم اليه زلفى ونصب الدلائل على نفى هذا الشرك وذكر الجزآء . ومثاله من الشعر ما يجيء فى ضروب الكلام الآتية

(١) مثاله من القرآن قوله تعالى فى وصف الصحابة « ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع » ومن الشعر قولنا فى المقصورة :

وان كان ذماً كان مسته اوجع ، ومسه الذع ، ووقعه اشد ، وحده احد ، (١)

وان حجاجاً كان برهانه انور ، وسلطانه اقهر ، وبيانه ابهر (٢)

وان قسا وديده لان وان يكدر عليه راق ورداً وصفا
لم يخش منه الطيش فى شرته والحلم والاغضاء منه يرتجى
تواضع عن شمم ورفعة ورقة من غير عجز ووني
الم تر الهواء فى رقته ولطفه لديه شدة القوى
يزاحم النجوم فى افلاكها علىً وكم يمسى يصافح الثرى

والمراد بمزاحمة النجوم المبالغة فى الارتفاع . ومنها قول بعضهم :

فتى عيش فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(١) مثاله من القرآن قوله تعالى فى الذى اوتى الآيات فانسلخ منها « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث » وقوله تعالى « انا جعلنا فى اعناقهم اغلالاً فهى الى الاذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فاغشيناهم فهم لا يبصرون » ومن الشعر قوله :

رأيتكم تبدون للحرب عدة ولا يمنع الاسلاب منكم مقاتل
فأنتم كمثل النخل يشرع شوكه ولا يمنع الخراف ما هو حامل

ومنه المثال :

ولو لبس الحمار ثياب خز لقال الناس يا لك من حمار

(٢) مثاله من القرآن ما تقدم من الآيات فى بيان طريقتى التمثيل ومن الشعر قول ابى العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجرى على اليبس

وقول غيره :

وتار لو نفخت بها اضاءت ولكن انت تنفخ فى رماد

ومن الامثال « ان العوان لا تعلم الخمرة » و « كدابغة وقد حلم الأديم » اى افسده الحلم وهو دود صغير

وان كان افتخاراً كان شأوه ابعد ، وشرفه اجد ، ولسانه الدّ ، (١)
وان كان اعتذاراً كان الى القبول اقرب ، وللقلوب اخلب ، وللسخائم اسلّ ، ولغرب الغضب اقل ، وفي عقد العقود انفث ، وعلى حسن الرجوع ابعث ، (٢)

(١) ما يجيء في القرآن من بيان عظمة الله تعالى وكماله لا يسمى افتخاراً ومثال هذا الضرب من الكلام العزيز وان اختلفت التسمية قوله « وما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » ومثاله من الشعر قول عبد المطلب :

لا ينزل المجد الا في منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

(٢) الاعتذار لا يوجد في القرآن الا حكاية عن اصحاب المعاذير الكاذبة فيكون الاعتذار حجة عليهم فهو اعتذار في الظاهر واحتجاج في المعنى وأثره ما ذكر في الاحتجاج دون ما ذكر هنا كقوله تعالى « وقالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » واما امثلته في الشعر فكثيرة منها :

لا تحسبوا ان رقصي بينكم طرب فالطير يرقص مذبوحاً من الألم

ومنها في الاعتذار عن صدود الحبيب :

بأبي حبيباً زارني في غفلة فبدا الوشاة له فولى معرضاً
فكأنني وكأنه وكأنهم املٌ ونيل حال بينهما القضا

ومن الاعتذار بذكر التمثيل ما وقع لابي تمام في قصيدة يمدح بها احمد ابن المعتصم قيل انه كان ينشده اياها فبلغ قوله :

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء اياس

فلامه بعض الناس قائلاً قد شبهت ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم باجلاف العرب (او ما هذا معناه) فاطرق هنيهة وقال ولم يكونا من القصيدة :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

ومما يصلح للاعتذار من الامثال قولهم « كل امرىء في بيته صبي » يعتذر به عن الدعابة والاسترسال في المباسطة في الخلوة . وقولهم « لو ترك القطا ليلاً لنام »

وان كان وعظاً كان اشفى للصدر ، وادعى الى الفكر ، وابلغ في التنبيه والزجر ، واجدر بأن يجلّي الغيابة ، ويبصّر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويشفي الغليل ،[1]

وهكذا الحكيم اذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت ابوابه وشعوبه ،[2] وان اردت ان تعرف ذلك وان كان تقل الحاجة فيه الى التعريف ،

---

(١) مثاله من القرآن الكريم قوله تعالى في وصف نعيم الدنيا « كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً » الكفار الزراع لانهم يكفرون الحب اى يسترونه بالتراب وقوله تعالى « ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه » الآية وقوله تعالى « انا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا » وقوله عز وجل « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » وقوله سبحانه « فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة » وقوله « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة » وقوله في الآية الأخرى « كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطلّ » وقوله في تمثيل من يحبط عمله الصالح بالايذاء او الرياء « أيودّ احدكم ان تكون له جنة من نخيل واعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات واصابه الكبر وله ذرّية ضعفاء فاصابها اعصار فيه نار فاحترقت » وفي معناه قوله تعالى « مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد »

ومن الأمثال حديث « ان المنبتّ لا ارضاً قطع ولا ظهراً ابقى » وحديث « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » . ومن الشعر قول ابن النبيه

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

وقول غيره

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي والطبيب مريض

(٢) يشير المصنف الى سائر مناحي الكلام كالغزل والرثاء والوصف والشكوى وهي

ويستغنى فى الوقوف عليه عن التوقيف ، فانظر الى نحو قول البحترى :

دانٍ على ايدى الصفاة وشاسع عن كل ندفى الندى وضريب

مع الذي ذكر وشتج متشابكة وامتزاج ممتزجة . واعمها الوصف فهو الطويل الذيل. المتدفق السيل . ومن امثلته فى القرآن قوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا اتينا طائعين » ومثله قوله تعالى « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي » الآية ومن ذلك الرؤى فانها تمثيل للواقع الذى تعبر به كالرؤى المذكورة فى سورة يوسف عليه السلام . ومنها قوله تعالى « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها » وقوله بعدها « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار » وهكذا الحق يثبت والباطل يزهق .

ومثاله من الشعر قول ابن النبيه :

والليل تجرى الدراري فى مجرته كالروض تطفو على نهر ازاهره

وقول بعضهم فى وصف الكاس يملوها الحباب والساقي : (اوهذا من تعدد التشبيه)

وكأنها وكأن حامل كاسها اذ قام يحملوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها بدر الدجى بكواكب الجوزاء

وفى وصف الأمير والجيش :

يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب

ومنه قولنا في المقصورة في وصف الوفاق :

لم نختلف في مبتدا مسألة الا وكان الوفاق المنتهى
كنا على المحيط من دائرة أنّى تفارقا فبعدُ ملتقى

ومنها فى وصف روضة :

والشمس تبدو من خلال دوحها آونة تخفى وطوراً تجتلى
كفادة وضاحة قد أتلعت من خلل السجوف ترنو والكوى
تلقى على الروض نشير عسجد فتحسب الروض عروساً تجتلى

ومنها :

والباسقات رفعت اكفها تستنزل الغيث وتطلب الندى

ثبت في العلوم الطبيعية ان الاشجار تكون سبباً لنزول المطر فمثلت هنا بحال

كالبدر افرط فى العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب [1]

وفكر فى حالك وحال المعنى معك وانت فى البيت الاول لم تنته الى الثانى ولم تتدبر نصرته إياه ، وتمثيله له فيما يجلى على الانسان عيناه ، ويؤدى اليه ناظراه ، ثم قسهما على الحال وقد وقفت عليه ، وتأملت طرفيه ، فانك تعلم بُعد ماين حالتيك ، وشدة تفاوتهما فى تمكن المعنى لديك ، وتحببه اليك ، ونبلهُ فى نفسك ، وتوفيره لأُنسك ، وتحكم لى بالصدق فيما قلت ، والحق فيما ادعيت ، [2]

وكذلك فتعهد الفرق بين ان تقول : فلان يكدّ نفسه فى قراءة

المستسقين يجاب دعاؤهم

وقول ابن دريد في وصف التوق :

يرسبن في بحر الدجى وفي الضحى يطفون في الآل اذا الآل طفا

ومن احسن ما يدخل في باب الغراميات قول المجنون

وقد كنت اعلو حبّ ليلى فلم يزل بي النقض والابرام حتى علانيا

وقوله :

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية او يراح

قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

وقول بعضهم :

ويلاه ان نظرت وان هي اعرضت وقع السهام ونزعهن ألم

وقول الآخر :

اني واياك كالصادي رأى نهلاً ودونه هوّة يخشى بها التلفا

رأى بعينيه ماء عز مورده وليس يملك دون الماء منصرفا

ومن الامثال التي تدخل من باب الشكوى « ليس لها راع ولكن حلبة » حلبة بالتحريك جمع حالب والمثل يضرب للامة المظلومة . و « لو كويت على داء لم اكره » يضرب لمن يعاقب على غير ذنب . و « سال بهم السيل وجاش بنا البحر »

(١) اى بالغ الغاية فى القرب (٢) مثال المدح ويتلوه مثال الذم

الكتب ولا يفهم منها شيئاً وتسكت . وبين ان تتلو الآية[1] وتنشد قول الشاعر :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيّدها الا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير اذا غدا بأوساقه او راح ما في الغرائر

والفصل بين ان تقول « ارى قوماً لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر ، بل في الاخلاق دقة ، وفي الكرم ضعف وقلة ، » وتقطع الكلام . وبين ان تتبعه نحو قول الحكيم : « اما البيت فحسن واما الساكن فردي ، »

وقول ابن لنكك :

في شجر السرو منهم مثل له رواء وما له ثمر

وقول ابن الرومي :

فغدا كالخلاف يورق للعيـ ـن ويأبى الاثمار كل الاباء

وقول الآخر :

فان طرّة راقتك فانظر فربما أمرّ مذاق العود والعود اخضر

وانظر الى المعنى في الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر ، ويفتر ثغره ويبسم ، وكيف تشتار الأزى من مذاقته ،[2] كما ترى الحسن في شارته وانشد قول ابن لنكك :

اذا اخو الحسن اضحى فعله سمجاً رأيت صورته من اقبح الصور

وتبين المعنى واعرف مقداره ثم انشد البيت بعده :

وهبك كالشمس في حسن المترنا نفرة منها اذا مالت الى الضرر

(١) يريد قوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً » (٢) الازي العسل واشتياره اجتناؤه

وانظر كيف يزيد شرفه عندك . وهكذا فتأمل بيت ابى تمام :[1]

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

مقطوعاً عن البيت الذى يليه ، والتمثيل الذى يؤديه ، واستقص فى تعرّف قيمته على وضوح معناه ، وحسن مزيته[2] ثم اتبعه إياه :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وانظر هل تشر المعنى تمام حلته ، واظهر المكنون من حسنه وزينته ، وعطّرك بعرف عوده ، واراك النضرة فى عوده ، وطلع عليك من مطلع سعوده ، واستكمل فضله فى النفس ونُبله ، واستحق التقديم كله ، الا بالبيت الاخير ، ومافيه من التمثيل والتصوير ،

وكذلك فرق فى بيت المتنبى :

ومن بك ذا فم مُرٍّ مريض يجد مُرًّا به الماء الزلالا

لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك : ان الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ويخيل اليه فى الصواب انه خطأ . هل كنت تجد هذه الروعة ؟ وهل كان يبلغ من وقم الجاهل ووقذه[3] وقمه وردعه والتهجين له والكشف عن نقصه ما بلغ التمثيل فى البيت وينتمي الى حيث انتهى

[4] وان اردت اعتبار ذلك فى الفن الذى هو أكرم واشرف فقابل بين ان تقول . ان الذي يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره .

---

(١) شروع فى مثال الحجاج (٢) وفى نسخة بزّته (٣) وقم الرجل قهره واذله ورده عن حاجته اقبح الرد . والوقذ الضرب ويسند للكلام تجوزاً (٤) شروع فى امثلة الوعظ ولم يمثل للافتخار والاعتذار

وتقتصر عليه وبين ان تذكر المثل فيه على ما جاء فى الخبر من ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضيء للناس ويحرق نفسه » ويروى « مَثَلُ الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها » . وكذا فوازن بين قولك للرجل وانت تعظه « إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تترُ نفسك » وتُمسك . وبين ان تقول فى أثره « إنك لا تجنى من الشوك العنب وانما تحصد ما تزرع » واشباه ذلك . وكذا بين ان تقول : لا تكلم الجاهل بما لا يعرفه ونحوه . وبين ان تقول « لا تنثر الدرّ قدّام الخنازير . او لا تجعل الدر فى افواه الكلاب » وتنشد نحو قول الشافعي رحمه الله : « أأنثر درًا بين سارحة الغنم » : وكذا بين ان تقول : الدنيا لا تدوم ولا تبقى . وبين ان تقول « هى ظل زائل . وعارية تسترد ، ووديعة تسترجع » وتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « منْ فى الدنيا ضيف وما فى يديه عارية والضيف مرتحل والعارية مؤدّاة » وتنشد قول لبيد :

وما المال والأهلون الا ودائع ولا بدّ يوماً ان ترد الودائع

وقول الآخر :

انما نعمة قوم متعة وحياة المرء ثوب مستعار

﴿ الشعر العصرى ﴾

من نظم نابغة العصر . في النظم والنثر . حافظ أفندي ابراهيم في المقابلة بين (دولة السيف والرمح ودولة المدفع)

يا دولة القواضب الصقال وصولة النوابل الطوال
كم شدت بين الاعصر الخوالى ممالكاً عزيزة المنال